اصل القبائل

في تونس والجزائر ومراكش كثير من الآثار التي يرجع عهدها الى ما قبل عصر التاريخ واهمها القبور على اختلاف اشكالها فمنها المخروطية الشكل ومنها المربعة مثل الغرف ومنها المقببة ومنها المستديرة . ومنها ايضاً قبور بسيطة اقيمت فوقها الانصاب فعلى بعضها نصب واحد وعلى بعضها نصبان واحد على كل جهة تعلوهما عتبة تصل الواحد بالآخر وعلى بعضها انصاب عديدة نصبت في دائرة . وقد عثر فيها على عظام بعض الذين دفنوا فيها ويظهر من وضعها ان الميت كان يدفن جالساً . والجماجم التي اخرجت منها وقيست كان ٦٠ في المئة منها مستطيلاً و ٣٠ في المئة مستديراً و ١٠ في المئة مضلعاً اي ان مخوف اصحاب هذه القبور مستطيلة او مستديرة في الغالب

وعثر ايضاً على ادوات من الصوان مثل القؤوس والحراب وغيرها وعلى آنية خزفية قليلة . وهذه الآنية على قلتها اهمية عظيمة لان نقوشها مثل السل المحبوك من العيدان اي مثل النقوش التي يزين بها الصوماليون آنيتهم الآن

ولا مستندات يؤخذ بها لمعرفة احوال المغرب قبل عمارة الفينيقيين لهُ الاَّ قصص لا تخرج عن حد الخرافات . ويذهب البعض الى ان قبائل شرقية اجتاحت المغرب قبل الفينيقيين وامتزجت باهله الاصليين ثم حل فيه الفينيقيون فاليونان فالرومان فاليهود فالوندال فالروم فالعرب فالترك فالاسبان فالفرنسويون وامتزجوا باهله ايضاً الاَّ ان بعض القبائل التي اعتصمت بالجبال تمكنت من المحافظة على لغتها وعاداتها فلم تقتبس من الامم الغالبة سوى الاسلام والكتابة بالحروف العربية . اما لغتهم فلهجة من لهجات اللغة النوبية الاصلية وهي قريبة من القبطية والنوبية والصومالية فهي اذن من اللغات الحامية . وفيها ما يقربها من اللغات السامية ولا قرابة بينها وبين اللغات الاوربية

وتقطن هذه القبائل اعالي جبال الاطلس في مراكش والجزائر وتونس ويطلق الاوربيون عليهم اسم القبائل وهي كلمة عربية كما لا يخفى وجبالهم مكتظة بالسكان فان عددهم في الميل المربع لا يقل عن ٥٠٠ نفس

ويقيمون جدران بيوتهم من سوق الاشجار واغصانها ويطلونها بالسياج ويظلون ارضها بالطفال . ولا يزيد طول البيت على ثلاثة امتار وعرضهُ على مترين ونصف . واهم ما فيها

كانون النار ومعصبة من الصين تمد عليها الفرش للنوم وسرابط للماشية وطاقات في الجدران تحفظ فيها الآنية . الاّ انهم اخذوا الآن يقلدون الفرنسويين في بناء بيوتهم وترتيبها

والرجال منهم اقوياء لا يبالون بتقلبات الجو وتعاديات الطبيعة وقد قال فيهم هيرودتس « الليبيون اصح الناس الذين عرفتهم اجساماً » وهم في الغالب مربوعون متناسبو القامات وقد ترى فيهم المشط في الطول ولكن قلما ترى فيهم قصيراً او ضعيفاً

وابدانهم بيضاء الاّ ما كان منها مكشوفاً معرضاً للشمس كالوجه واليدين فانها سمراء فهم اذن ليسوا من الحاميين الذين يولدون وابدانهم سمراء . وعيونهم سيفي الغالب سمراء ايضاً وشعورهم سوداء وتكوكهم غير بارزة بروز تكوك الزنج بل تشبه تكوك الاوربيين . وجباههم عريضة وانوفهم معتدلة التركيب وافواههم وآذانهم صغيرة وحاجبهم كثة ولكنهم لا يرسلونها لتطول بل يتعاهدونها بالقص كما يتعاهدون شعور رؤوسهم . وتتراءى على وجوههم امارات الذكاء والبشاشة

وقوامهم مستطيلة لا ترى فيهم رأساً مفلطحاً والشبه بينهم وبين اهل البلاد الجنوبية من اوربا شديد فاذا ارتدوا الزي الاوربي فقد لا يتميزون عن الاسبان والطليان . وفيهم كثيرون شقر الالوان زرق العيون حمر الشعور كانهم من اهل شمال اوربا وليس فيهم من يشبه الزنوج الاّ قليل جداً

ونساؤهم بارعات الجمال يبرزن مسفرات وقد ترى فيهن الزنجيات ولكن هؤلاء سيفي الغالب جواري يؤتى بهن للخدمة . وسن الزواج عندهم الخامسة عشرة للفتى وللفتاة

اما لباسهم فمثل لباس العربان اي قميص فوقها ثوب يجاوز الركبتين ويزيد الرجال على ذلك العباءة او البرنس والنساء شالاً يتمنطقن به

والثوب النساء في الغالب حمراء اوزرقاء او مخططة ومثلها لباس الرأس . ويتزين بحلى الفضة والمرجان والخرز يعلقنها في شعورهن او اعناقهن او على صدورهن وبالقروط والاساور والخلاخيل الذهبية وتعلق للاولاد التعاويذ والنساء يملن الى الزينة ولكنهن في الغالب محتشمات يحرصن على العمل

ومعيشتهم على الزراعة يتعاون فيها الرجال والنساء . واكثر ما يزرعون الشعير والقمح وعندهم الكرم والتين والزيتون ويصدرون مقادير كبيرة من الزيت والخمر كل سنة . وتقوم النساء بخدمة البيت كلها ويحكن الاقمشة ويصنعن آنية الفخار

وقد اقامت لهم الحكومة الفرنسوية مدارس يتهذب ابناؤهم فيها فنشأ منهم الاطباء

والحاميون وانشأت لهم الطرق لترويج التجارة . ولا تاريخ لهم ولا تقاليد تاريخية ولا كتب مدونة بلغتهم ولكنهم يتناقلون بعض القصص والخرافات

اما هل هؤلاء من نسل الذين اقاموا القبور التي مر ذكرها فليس من دليل يهتدى به سوى شكل الجماجم التي وجدت في القبور وهي قبيلة . وقد رأينا انهم يستطيلون الجمجم او يستديرونها وان هذه الجماجم مثل ذلك في الغالب ولا يجوز بناء حكم قاطع على هذا الامر وحده وغاية ما نقدر حتى الآن ان اسلاف هذه القبائل هم الذين اقاموا تلك القبور

بقي مسألة اخرى لا نقل عن هذه صعوبة وهي من اسلافهم ايضاً هم الذين خلفوا الظران وقد قال هامي ان نقوش آنيتهم الخزفية على هيئة السل المحبوك من العيدان ولا يشاهد مثل ذلك الآن في الصومال وعليه فلا بد من قرابة بين الذين خلفوا هذه الظران وبين اهل الصومال

ومحصل ما تقدم ان القبائل من الشعوب البيضاء التي تقطن شواطئ بحر الروم وقد امتزج بهم اناس شقر الالوان زرق العيون يشبهون اهالي شمال اوربا وجميعهم يتكلون لغة حامية الاصل . وعليه يبقى علينا ان نحل مسائل اربع

المسألة الاولى من اين جاء ذوو اللون الاشقر الى المغرب واختلطوا باهله وقد ذهب البعض الى انهم من اهل الشمال الذين ورد ذكرهم في بعض الكتابات في القرناك حوالي سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد وانهم اوغلوا في المغرب حتى وصلوا الى مصر وهؤلاء الشماليون هم الذين علموا المغاربة البناء بالحجارة الكبيرة

وذهب آخرون الى ان الشقر من اصل اوربي ولكنهم جاؤوا المغرب في عصر التاريخ اي انهم هم الوندال الذين عبروا خليج جبل طارق واجتاحوا المغرب سنة ٤٢٩ ميلادية ولكن هذا القول مردود بشهادة بعض المؤرخين ان اكثر الوندال فنوا في حروبهم مع امم المغرب ولم يبق منهم سنة ٥٤٤ سوى ٤٢٠ نفساً قتل بعضهم في محاربة البيزنطيين ونقل الباقون الى القسطنطينية . زد على ذلك ان المؤرخين بين القرنين الثالث قبل الميلاد والثالث بعده اي قبل حلول الوندال في البلاد يذكرون ان بعض البربر شقر الالوان

وذهب البعض الى انهم اصليون في البلاد مثل السمر لكن سكنهم في جبال الاطلس العالية اثر في الوانهم وايد ذلك بان الذين بحثوا في الوان الايطاليين وجدوا ان الشقر يكثرون في المقاطعات التي يزيد ارتفاعها على ٤٠٠ متر والسمر يكثرون في المقاطعات التي ارتفاعها دون ذلك . ولكن يعترض عليه بان بعض القبائل في جنوب مراكش تسكن جبالاً اعلى من ٤٠٠ متر وليس فيهم واحد اشقر

على انا لا نعرف الشقر اصليين في بلاد غير البلاد الشمالية من اوربا وعليه فلا بد ان يكون الشقر في المغرب نسل قوم من اهل الشمال اتوا المغرب قبل عصر التاريخ اذ لم نسمع بحدوث ذلك في عصر التاريخ . ومن الطبيعي ان يكثر هؤلاء في البلاد المرتفعة الباردة التي تشبه بلادهم في الاحوال الجوية

المسألة الثانية من اين اتى البيض ذوو الشعور السوداء والعيون السمراء . ويستحيل حل هذه المسألة على وجه قطعي لان كل الشعوب القاطنة البلاد المجاورة للبحر المتوسط متشابهة في بناء اجسامها فيصعب التمييز بين امة واخرى الا ان هؤلاء المغاربة ليسوا من الزنج ولا من الحاميين فهم ليسوا اصليين في البلاد ولعلهم اتوا المغرب من جهة اسبانيا ومما يقوي هذا الظن شدة الشبه بينهم وبين الاسبانيين . وقد يعترض على ذلك بانهم يتكلمون لغة حامية وجوابنا على ذلك ان كثيراً من الامم غلبت غيرها واجلتها عن بلادها ولكنها اقتبست لغتها ومن امثلة ذلك النورمنديون الذين اجتاحوا شمال فرنسا فانهم استبدلوا لغتهم بالافرنسية . على ان النورمنديين امتزجوا بعد ذلك بالفرنسويين لقرابة بين الامتين اما هذه القبائل فلم تمتزج بالافريقيين لانها تختلف عنهم كثيراً

المسألة الثالثة . من هم سكان البلاد الاصليون والغالب انهم كانوا حاميين اي من الشعوب السمراء بدليل اللغة ومما يقوي ذلك ان آنية الخزف القديمة من العصر الحجري التي يعثر عليها تشابه آنية الخزف التي يصنعها الصوماليون الآن

المسألة الرابعة . اي امة بدأت باقامة القبور من الحجارة الكبيرة في شمال افريقية وقد لمحنا الى الحل الذي يرتأيه البعض لهذه المسألة في ما تقدم من الكلام اي ان اهل الشمال هم الذين قاموا بذلك اولاً . الا ان هذه القبور لا تنحصر في شمال اوربا او في المغرب بل تمتد الى يوغندا وسورية والهند والصين واليابان ولعل هذه العادة اي اقامة القبور على ما تقدم الوصف في اول الكلام كانت من مقتضيات المدنية الاولى في جميع اقطار الارض . ويستحيل تعيين امتدادها من اوربا الى افريقية او من افريقية الى اوربا الا اذا عرفنا عصر اقامتها في كلا البلادين وايهما اسبق وهذا لم يتيسر لنا حتى الآن . ولكن ليس شيء من هذه القبور في الجبال العالية من سلسلة الاطلس مثل ازيف وجرجرا واوراس اي حيث يكثر الشقر وذلك يبعث على الظن ان هذه العادة لم تجئ الى شمال افريقية مع اهل الشمال من اوربا . والراجح ان تاريخ بلاد المغرب تمشى على الصورة التالية

سكنها في اول الامر امة حامية قريبة من امة الصومال تتكلم لغة حامية

ثم اجتاحها اسلاف القبائل من اسبانيا فاجلوا اهاليها الاصليين الى الجنوب واستوطنوا بلادهم واقتبسوا لغتهم واقاموا هذه القبور

ثم اتاها اهل الشمال فامتزجوا بالقبائل الأ ان معظمهم سكن الجبال العالية من سلسلة الاطلس فبقوا متميزين بصفاتهم الشمالية حتى العصر الحاضر

واجتاحها في عصر التاريخ الفينيقيون ثم اليونانيون ثم الرومانيون ثم اليهود ثم الوندال ثم البيزنطيون ثم العرب ثم الترك ثم الاسبان ثم الفرنسويون . الأ ان القبائل التي اعتصمت في الجبال العالية حافظت على مميزاتها القومية حتى عصرنا الحاضر

انتهى منتطفاً من فصل لفون ليساور الالماني

باب تدبير المنزل

قد فهمنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم اهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الطعام والثياب والشراب والمسكن والزينة وغير ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

النباتات الاهلية وفوائدها الطبية

[من يطالع كتب الطب ويرَ ما هي عليهِ من سعة المباحث يخيل لهُ انهُ يسير في تيه لا يهتدي الى مسالكهِ او انهُ يمعن في اسرارٍ لا سبيل لهُ الى كشفها وحل رموزها . ولكنهُ اذا جمع شتاتها وردّها الى اصولها رأى ان الطب رغم تقدمهِ واتساعهِ ينحصر عملهُ في قواعد قليلة يبني عليها الممارس سيرهُ وترشد بها خطاهُ حتى انهُ قلّما احد الاساتذة ممن يعوّل على آرائهم ويعدُّ حجة في العلم والف كتباً حصر فيهِ المداواة في عشرين وصفةً

لا نريد بذلك ان نحط فضل الباحثين والمدققين او ان ننكر فائدة الابحاث الطويلة الدقيقة التي كشفت كثيراً من غوامض هذا العلم . وانما نريد ان تلك الابحاث ترجع الى القواعد العمومية المذكورة وان الطبيب يستفيد من نتيجتها من غير ان يضطر الى مراجعتها بنفسهِ للوقوف على حقيقتها وسر اكتشافها . ومثلهُ اب العائلة الذي يريد ان يستثمر بعض المعارف الطبية ويعمل بها في بيتهِ ولدى عائلتهِ

ولبيان ذلك نقول ان الزهري مرض خبيث اثبت العلم ان الزئبق يشفيهِ ولكن بالاستمرار